التجربة العملية والتجربة الجوانية في فلسفة محمد إقبال – نحو مقاربة ابستمولوجية–

Practical Experience and Inner Experience in Muhammad Iqbal Philosophy - Towards an Epistemological Approach

الاسم الكامل للمؤلف الأول[1] جاب الخير أحمد

ملخص المقال:

تسعى الفلسفة –منذ نشأتها–إلى البحث عن الحقيقة، ولما كانت هذه الحقيقة لا يمكن اقتناصها إلا في قوالب منهجية، كان من الضروري –تبعا لذلك–البحث في المناهج المعرفية الموصلة إلى هذه الحقيقة، واليوم في ظل هيمنة النزعة الغربية المادية وتأسيسها لمناهج معرفية قاصرة لم تبرح حدود المحسوس، فنظرت إلى الإنسان نظرة شيئية عرية عن القيم، نجم عنها اضطراب خلف أشكالا متعددة من الانحرافات، والأنماط السلوكية غير سوية.وهذا ما يدفعنا إلى التساؤل عن البديل الإسلامي في نسقه المتكامل، الذي يحترم العقل، ويمجد التجربة، ويعتمد الذوق (القلب)، ويوازن في –نظرته إلى الإنسان– بين المادة والروح،وجاءت هذه الدراسة تهدف أساسا للكشف عن شمولية المنهج الإسلامي في المعرفة من خلال إسهامات محمد إقبال.

كلمات مفتاحية:الهيمنة الغربية، المادية، إقبال، المحسوس

Abstract:

Philosophy seeks – since its inception – to search for the truth, and since this truth can only be acquired in methodological templates, it was necessary – accordingly – to research the cognitive approaches leading to this truth, and today in light of the dominance of the Western tendency materialism and its establishment of deficient cognitive approaches that have not remained the limits of the sensed, so I looked at the human being with an object-oriented view naked about values, resulting in disorder behind multiple forms of deviations, and abnormal behavioral patterns. This is what leads us to wonder about the Islamic alternative in its integrated format, which respects the mind, glorifies experience, adopts taste (the heart), and balances in its view of man between matter and spirit, and this study aims mainly to reveal the comprehensiveness of the Islamic approach to knowledge through the contributions ofMuhammad Iqbal.

Keywords:Westerndomination, materialism, turnout, tangible

(1) مؤسسة الانتماءللمؤلف الأول (البلد): أحمد جاب الخير جامعة الشهيد الشيخ العربي التبسي – تبسة

مقدمة:

لا يزال العقل الغربي –على الرغم من التطور الذي بلغه في مختلف الحقول المعرفية– يحصر منابع المعرفة في عالم الحس والمشاهدة، وفق أدواتها ووسائلها المستعملة في التجربة العملية، ولئن كان ذلك جانبا مكَّنهُ من السيطرة على الطبيعة، واستغلالها استغلالا واسعا تتحقق به ألواناالمطالب المادية، بعد أن ترسب في مخياله سلعنة الإنسان، وجعله حبيس رغبات الحس ومطالب الجسد، وهي النظرة الشيئية المقيتة التي تخمد في أجواءها القيمة الخلقية، وعليه تأتي المعرفة في التصور الغربي وفق ما يحقق السيادة لهذا الإنسان، ويزوده بنزعات الاستعلاء والهيمنة، وكل هذا كفيلبإثارة التساؤل عن مكمن الخلل الذي جعل الانسانية تخفق في بناء صرحها الحضاري، وما هو البديل الذي في وسعه تحقيق ذلك المفقود وفق نظرة شاملة توازن بين المادة والروح في نظرتها للإنسان بعد تحريره من منطق الشيئية؟.

وهذه الإشكالية بدورها تحيلنا إلى إشكالات فرعية مترتبة عنها يمكن صياغتها على النحو التالي:

ما هي العوامل والظروف التي شكلت الرؤية المعرفية المتكاملة عند إقبال؟

ما هو البديل الذي قدمه إقبال في نظرية المعرفةبوصفه نسقا شاملا بين المنهج العقلي، والحسية، وكذا المنهج الذوقية العرفاني في ضوء دلالات الوحي ؟

ما مفهوم التصوففي فلسفة محمد إقبال؟ ، وما أهميته في الواقع المعاصر؟ وما الموقف من أقطابه الكبار؟

وهذا ما عمدنا إلى بيانه في هذه الدراسة،وقدبذلنا الوسع في بيان الطبيعة التكاملية والشمولية بين الحقول المعرفية على تنوعها وتمايزها في الغالب من الأحيان، ومثل هذه المواضيع يجدر طرحها لما تحظى به من أهمية في واقعنا اليومي، كما يمدنا هذا بصورة صادقة عن طبيعة المعرفة في المناهج الغربية، والتي ضاقت بها الرؤية في حدود العالم الحسيالمشهود، وهينظرة أحادية لاحظ فيها للقيم الخلقية والروحية،ولا يخفى ما نجم عن ذلك منتشوه في المنظومة المعرفية، ومن شذوذ في أوساط المجتمع الغربي، وقد بذلنا وسعنا في هذا البحث لنبين كيف أمدنا الفكر الإسلامي بصورة مغايرة، صورة وازنت في مضمونها بين قيمة الروح ومطالب الجسد، وفق منهج الوسطية والاعتدال الذي أقره الإسلام الحنيف، ولذلك فالإنسان في التصور الإسلامي هو قيمة من غير إهمال لحقوق الجسد، وجسد من غير إغفال للروح، وبهذا تتشكل الحضارة وفق هذه الازدواجية المتكاملة بمنأى عن الجنوح المفرط إلى أحد الطرفين، ويتجلىهذا بصورة أكثر دقة ووضوحا في نموذج محمد إقبال(محمد اقبال ، 2011م، صفحة 4)، باعتباره عالما موسوعيا، وفيلسوفا لا ينطق عن الوهم، ونقصد بذلك أن فلسفته لم تكن مجرد نظريات من الأزمنة الخوالي، ولا نظرته كان قد استجمعها من سابق العهود، بل إنه عاش قي الغرب، وتعمق في دراسة أفكاره وفلسفاته، ووقف على كثير من حقائقه، ولكنه مع ذلك لم يفقد ذاته، ولم يتنصل من أصول نشأ عليها، وطرح موضوع المعرفة في سياقها التكاملي الذي يجمع بين العقل والحس والقلب ، وهو منهج القران الكريم الذي دعا إلى تحرير العقل من قيود التقليد، وضرورة استعماله في وظيفته المنوطة به، وهي التدبر في عالم الحس والآفاق، ولا تكون الصورة كاملة إلا إذا توج ذلك بالقلب باعتباره منبع من منابع المعرفة إذا مددناه بالتخلية، وتحقق بالتحلية.

وعلى هذا فلا مبالغة في قولنا إن إقبال هو واحد من أبرز المجددين في تكاملية المعرفة ومناهج العلوم الدينية والطبيعية المخبرية ذات الطبيعة العملية، وقبل الغوص في بيان ذلك وتحليله نود الوقوف على بعض الجوانب في حياته في حدود ما يعيننا على فهم فلسفته وفكره.

نشأته العلمية:

يُعرف محمد إقبال بفيلسوف الأمة وحكيمها، وهو مع ذلك أديب وشاعر لا تجود الأزمنة بأمثاله إلا على سبيل الندرة والاستثناء، وصفه الباحث عبد الوهاب عزام بـ" المفكر الحر، والفيلسوف الذي لا يسير مع الزمان، ولا يخضع لتقلب الحدثان، والشاعر الذي ينفخ الحياة في الموات، ويبعث في القفر النبات، ويشعل الجمر الخامد في الرماد الهامد"(عبد الوهاب عزام، 1954م، صفحة 4) ولذلك كان ولا يزال شخصية يحظى باهتمام كبير ليس على مستوى الباكستان ـ مسقط رأسه ـ فحسب، ولا على مستوى شبه القارة الهندية أيضا، وإنما على مستوى العالم الإسلامي على امتداده ربوعه الفيحاء.

ولد محمد إقبال في مدينة سيالكوت سنة 1877م(علي بن علي سالم، 1430، صفحة 10)، وهي مدينة من مدائن الباكستان الغربية، في أسرة أسلمت على يد متصوفة منطقة كشمير، ولذلك ظلت النزعة الروحية الثائرة تختلج جوانحه، وتظهر في أخلاقه وكتاباته في كل مرحلة من مراحل حياته، فقد كان مفضالا خلوقا، وذو نفس تواقة إلى العلم والنهل من زلال المعرفة، جمع إلى ذلك التواضع وحسن الأدب، والاهتمام بقضايا الأمة الإسلامية،ووهب قلبه وعقله للأمة الإسلامية وللبشرية جمعاء، ومن الخلال المركوزة فيه أيضا أنه كان ذا ثقافة واسعة ومتنوعة وشاملة، ولذلك جاءت شخصيته انعكاسا للبيئة الروحية التي انحدر منها، فقد كان –كما قال الندوي– " سليل بيت عرف من أوسط بيوتات البراهمة في منطقة كشمير، وهو بيت معروف بالتصوف والصلاح، أضف إلى ذلك صلاح والده، ورقة طبعه، وميله إلى التصوف"(أبو الحسن الندوي، 1960م، صفحة 15).

ومما ذكى عزائمه أيضا دخوله مدرسة انجليزية في بلده، ونيله منها درجة الامتياز في الامتحان الأخير، ثم التحاقه بالكلية في البلد ذاته، وتعرفه على الأستاذ مير حسن، وهو من أبرز أساتذة اللغة العربية والفارسية، وكان إقبال حينها حديث السن، نصح الأستاذ مير حسن والد إقبال – وهو أستاذه في المسجد– أن يلحق إقبال بالثانوية الاسكتلندية بسيالكوتscottish mission high school(مير عبد الحميد إبراهيم، 1413هـ، صفحة 10)وهو ما جعله محل احترام تلامذته، والتأثير فيهم، ومنه نهل إقبال الثقافة وعلوم الدين، وظل طوال حياته يذكر مزاياه وفضائله عليه، ثم سافر بعدها إلى منطقة لاهور عاصمة البنجاب، حيث التقى بالأستاذ القدير مس أرنولد في إحدى الكليات الحكومية(علي بن علي سالم، 1430، صفحة 10) وهنا برزت مواهبه في اللغة العربية واللغة الانجليزية معا، وقويت صلته بالأستاذ أرنولد، والأستاذ عبد القادر المحامي، وولج معه أجواء العلم و فضاءات الأدب، مما أوقد شعلة الإيمان والحب في قلبه، وجعله يتربع على عرش السمو، فالطباع والأخلاق في الغالب تأتي مستوحاة من البيئة التي يشب فيها المرء، إذ لا يخفى تأثيرهافي إلهامه الاستقامة،وفي تفجير خوامد الهمم في باطنه، وعلى النقيض من ذلك تكتسب النفس طبع البلادة في الأوساط البليدة.

كما يمكن القول –إضافة إلى ما سبق– أن حُسن هذه الخلال كان واضح الأثر في أتباعه وقراءه،إذ فتنوا به أيما فتنة ومنحوه المكانة الرفيعة في الأوساط الأدبية والعلمية، كيف لا وهو بلا منازع مبعث النور في سماء الشرق، وكان لشخصيته الإسلامية ظهور في شخصيات إسلامية شهيرة من أمثال الأفغاني، ومحمد بن عبد الوهاب(سمير عبد الحميد إبراهيم، 1413هـ، صفحة 15) كما اجتمعت فيه من صفات النبل والشجاعة والصدق ما لا يحصل أن يجتمع في غيره، وفي هذا يقول الندوي: ((إن أسباب الإعجاب بشعر محمد إقبال كثيرة، وللمعجبين به أن يتحدثوا عن أسباب إعجابهم، وهي ترجع في الغالب إلى موافقة الهوى والتعبير عن النفس، فالإنسان إنما يُحب نفسه ويطوف حولها ويعيش فيها، ويحب كل ما وافق نفسه، وترجم عن ضميره، ولا أبرئ نفسي، فربما أحببت شعر إقبال لأني رأيته يوافق هواي، ويعبر عن ضميري وخواطري، وينسجم مع عقيدتي وتفكيري، ويتناغم مع عاطفتي ومشاعري))(أبو الحسن الندوي، 1960م، صفحة .3).

إن النفوس العامرة في الحياة تملك من جميل الخصال ما يجذب الأفئدة إليها، وهي كما يقول ابن خلدون: ((بيوت أهل العلم والثروة تكثر سياحتها وأقنيتها بنشر الحبوب و سواقط الفتات، فتزدحم عليها غواشي النمل، وتحلق فوقها عصائب الطيور حتى تروح بطانا وتمتلئ شبعا، وبيوت أهل الجهل والخصاصة الكاسدة أرزاقهم لا يسري بساحتها دبيبا، ولا يحلق في أجواءها طائر، ولا تأوي إلى زوايا بيوتهم فأرة ولا هرة))(ابن خلدون (عبد الرحمن)، 2012 ، صفحة 121) ، وما قيل عن عمار البيوت ينسحب على عمار العقول والنفوس، فهو بحق شخصية علمية وروحية متكاملة، وقد حبته الأقدار إلى أن يتوج ذلك بنيله شهادة الدكتوراه من إحدى الجامعات الألمانية (جامعة munchen) 1908 ، والموسومة بـ"تطور ما وراء الطبيعة في إيران'، لينفتح بعد ذلك على آفاق أرحب، وسعت مداركه العقلية، وأكسبته شهرة في الأوساط، وأغدقت عليه قبولا في النفوس، رسخت فهمه للوجود وجعلته ينسجم معه في صورة أكثر عمقا، إلى أن توفي – رحمة الله عليه– في الواحد والعشرين من شهر أفريل من سنة 1938م بمدينة لاهور الباكستانية، ومما ذكر عنه –رحمة الله عليه– أنه أنشد قبل وفاته بلحظات وجيزة يقول:

نغمات مضين لي هل تعود أنسيـــــم من الحجــاز يعود

أذنت عيشتي بوشك رحيل هل لعلم الأسرار قلب جديد(عبد الوهاب عزام، 1954م، صفحة 44)

–وكانت وفاته فاجعة ألمت بقلوب المسلمين وغير المسلمين في كل أصقاع الدنيا، خلفت كلوما لا تقوى الليالي على إخماد نارهافي ذاكرة أتباعه على الدوام.

المعــرفة عند محمد إقبال:

مما يستوجب العلم به عن محمد إقبال أنه كـرَّس حياته ــ مذ نشأته إلى غاية وفاته ــ للمعرفة، وأفنى عمره في البحث والتحصيل، والنهل من الثقافة الغربية والعربية الإسلامية على حد سواء، وهذا ما جعله فيلسوفا حكيما ذا منهج تكاملي

ونسق متكامل جامع بين دقائق العلوم ورقائق القلوب، وهذه النظرة الشمولية إلى الوحي وإلى الوجود هي التي قادته إلى إدراك تعدد موارد المعرفة، العقل، الحس، الذوق، فهو قبل كل شيء مسلم متأثر بالقرآن الكريم، وبالسنة النبوية، وبالأدب العربي، ولذلك نجد أدبه أدبا إسلاميا(سمير عبد الحميد إبراهيم، 1413هـ، صفحة 6)، والقرآن الكريم –كما هو جلي لمن تدبره وأمعن النظر في آياته–هو الكون المعنوي الذي يضارع الوجود الحسي، والوجود الحسي هو الوحي المادي الذي يجسد أسرار الكون و ينطق بخبايا الآفاق، ولذلك كثيرة هي الآيات القرآنية التي تحث العقل على ممارسة وظيفته التي خُلق من أجلها، إنها وظيفة النظر والتدبر في الخلق على تنوع مظاهره ومشاهده، "**إن في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون ـ البقرة، الآية 164**، وقال تعالى في موضع آخر " **إن في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الالباب**" ـ **آل عمران، الآية190.**، وكثيرة هي الآيات الواردة في سياق إعمال العقل وربطه بالوجود لإيجاد علاقة تفاعلية بينهما، ويزداد هذا المعنى وضوحا حينما نستقرئ الوحي ونقف في آياته الكريمة على أنه يعيد أسباب الغي والجحود إلى تعطيل هذه الملكة الربانية التي بها ارتقى الإنسان عن السوائم، وحلق بموجبها فوق حضيض الأنعام، وعد تعطيلها عن وظيفتها التي خلقها الحق من أجلها طريق الكفروالضلال"**أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها**"**سورة محمد، أية 24** ـ ومن جميل القول أن نبين أيضا أن القرآن الكريم يلحق أدوات الحس بالعقل ليمدنا بمفهوم التكاملية المعرفية "**وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير**"**سورة الملك، آية 10** ، وعلى هذا المنهج القرآني الذي يتسم بالشمولية والتكاملية سار محمد إقبال في بحوثه المعرفية، وهو ما نسعى إلى تناوله، مبينين من خلاله منهج إقبال في الوصل بين منابع المعرفة المتعددة، ورؤيته الجامعة والعميقة إلى ذلك.

1.2 المعرفة العملية:

من الجدير بالأهمية في هذا المقام الإشارة إلى أن المقصود بالمعرفة العملية هي المنهج التجريبي الذي تأبى العصبية الغربية إلا أن تنسبه إلى رواد التجربة من الفلاسفة الأوربيين من أمثال فرنسيس بيكون، روجر بيكون، دافيد هيوم، وغيرهم، وهو افتعال يضمره الغربيون لتغطية حقيقة يدركونها بوضوح ويتنكرون لها في إصرار، أو يتجاوزونها في جحود، وهي أسبقية ابن الهيثم من خلال كتابه الشهير " المناظر" إلى البحث في هذا المنهج وإبراز خطواته، واشتمل هذا الكتاب على علوم تجريبية عديدة،وفيه ما يتعلق بعلم الرياضيات، وعلم البصريات، وعلم النفس، وقد ألفه ابن الهيثم في مطلع القرن الحادي عشر الميلادي في مصر وهو مسجون،وظل معتمدا في أعرق معاهد الغربمن أمثال جامعة كامبردج، و جامعة أكسفورد، وغيرهما، كان ذلك قبل ظهور أولئك الغربيين، ومما لا يخفى على المنصف الحصيف أن القرآن الكريم نفسه حض العقل على الاهتمام بوسائل الإدراك لحسي، السمع، البصر.، مع ميزة عدم إغفال القلب بوصفه ملكة تنعكس فيها المعرفة كما هو معلوم في أسفار الصوفية، وقد أبدع الغزالي (ت505هـ)، ومن بعده ابن عربي(ت638)في هذا الضرب من ضروب المعرفة،"**إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤول**"**سورة الإسراء، الآية 36**

وكان لمحمد إقبال اهتمام واسع بالتجربة العملية المخبرية، وذلك من خلال المنهج القرآني الذي يحث في سياقات متعددة على التأمل في عوالم النبات والإنسان، وعلى استعمال أدوات المعرفة الحسية المشهودة من سمع وبصر، وإعمال العقل فيها للنظر، والملاحظة التي هي أساس التجربة والاستقراء (محمد اقبال ، 2011م، صفحة 199)، وهو منهج شامل للحقول المعرفية يتماشى في تناسق مع المعرفة الذوقية وفق رؤية تكاملية.

ومما نلحظه في المنهج القرآني هو مخالفته لما يتباهى به رواد المناهج الغربية اليوم من احتكارهم للمناهج المعرفية، في الحين أن ما نقف عليه بعد دراسة وتأني هو خلاف ذلك تماما، وخاصة إذا علمنا أن المعرفة الغربية هي وليدة الفلسفات اليونانية القديمة، حيث كان أفلاطون موغلا في المثالية إلى حد جعله يحكم على هذا العالم الحسي بالدنس، وأنه –في نظره– ليس إلا انعكاسا للعالم العلوي المثالي، كما هو معروف في نظرية المحاكاة، وجاء من بعده تلميذه أرسطو ليجعل من الحس وحده مصدرا للمعرفة فكانت تأليفاته في المنطق و الطبيعيات (الأورغانون القديم)، حتى إن كتاباته الأخيرة لم يجعل لها تصنيفا فسميت من طرف تلامذته بما بعد الطبيعة– **الميتا:** وتعني بعد، و**الفيزيقا:** وتعني الطبيعيات–.، وفي الفلسفات المعاصرة لا أثر للقيم الروحية في المناهج المعرفية مما يجعلنا نتفق مع أبي الحسن الندوي في الحكم عليها بالعرجاء المشوهة، ونحن لا ننكر التفوق الغربي الحاصل اليوم في مختلف العلوم والحقول المعرفية، كما لا يمكن أن نتجاهل التخلف الحاصل في الشرق، ولكنه لا يخفى علينا أن التفوق الغربي لا يتجاوز أن يكون أحادي الأساس، مادي النظرة، لا يؤمن إلا بما يتماشى مع أهدافه الكولونيالية المقيتة، تأتي المعرفة عنده خلوا من القيم الأخلاقية، عرية من النزعة الروحية، فقيرة إلى الحب والإيمان، استحوذت على الطبيعة وسخرتها لخدمتها ولكنها أخفقت في رفع البؤس عن الإنسان، وظلت الاضطرابات والأمراض النفسية تنهش باطنه، وغالبا ما ينتهي به ذلك إلى التيه في دروب الجنون ومسالك الإدمان.

2.2 المعرفة الجوانية عند محمد إقبال:

من المعروف في أسفار الصوفي(ت505هـ)،أن المعرفة الذوقية هي معرفة كشفية، وتجربة ذاتية خاصة بالذات العارفة، يكل عنها اللسان، وتفسدها التعريفات، لكونها تضيق بها أوعية اللغة ولا يليق نقلها للأغيار، ولنردد على حد تعبير الغزالي إنها مضنون بها على غير أهلها، وهي ضرب من ضروب المعرفة الباطنة النابعة من الداخل ـ على خلاف المعرفة العقلية والحسية الآتية من الخارج ــ ، ومحلها القلب الذي تستقر فيه بعد رياضات ومجاهدات ترتقي بالعارف في مقامات وتكسبه أحوال تنتفي فيها الوسائط بين الخالق والمخلوق، وتنزاح الحجب، تقول الدكتورة سعاد الحكيم في معجمها: " هي تجربة جوانية تتحرك في إطار ذاتية معيشة، بعيدا عن الحروف والكلمات، بعيدا عن الآخرين ، تجربة قرب وعرفان مجالها الحيوي القرآن والسنة، تجربة إسلامية تجربة قرآنية من نمط خاص "(سعاد الحكيم، د س، صفحة 13).

ومحمد إقبال صوفي المشرب، يقول في ديوانه: " إنني بتربيتي وفطرتي أنزع إلى التصوف، وقد زادتني فلسفة أوربا نزوعا إليه"(محمد اقبال، 1956، صفحة 12)، وكان له اهتمام واسع بمجال هذا اللون من المعرفة الذي يرى أنها معرفة تسمو بالذات لتصلها بالذات المطلقة(محمد اقبال ، 2011م، صفحة 62) ويرى أن التجربة الدينية هي علم شامل ومحسوس ومتكامل(محمد اقبال، 1956، صفحة 35)، والتجربة الدينية أو التصوف عند محمد إقبال هو نزعة روحية تقود إلى التفاعل مع العالم المحسوس لا نزهد فيه، بل إنه عملية تفاعلية بين الباطن والحس تنكشف المعرفة بموجبها، وهذا أمر بعيد

عن التصورات العقلية، لأنها تحولات بيولوجية باطنية عير خاضعة للأحكام المنطقية(محمد اقبال، 1956، صفحة 212) ومن الجلي أن إقبال في تصويره لهذه التجربة لا ينطلق من فراغ، ولا يصدر أحكاما سطحية، وإنما ينتهي إلى ذلك بعد عمق دراسة في مجال الفلسفة والعلم، مع طول طواف حول آيات الوحي الكريم.

وفي العديد من المواضع من مصنفات إقبال نجده يوازن بين العلوم الانسانية والفلسفة وبين آيات الوحي الكريم، ليخلص إلى عمق وشمولية هذا الوحي الكريم.

ولما كانت التجربة اللدنية الوجدانية محلها القلب، فإن إقبال يرى ـ كغيره من أرباب القلوب ـ أن هذه التجربة لها خصائص جوهرية، وعلى الرغم من أنها لا تختلف عن التجارب في حقل المعرفة الإنسانية الأخرى إلا تتميز عنها في كونها معرفة مباشرة، تأتي في العادة غير قابلة للتحليل، وهي لحظة من الاتصال الوثيق التي تتصل فيها الذات الانسانية بذات علوية مطلقة تفنى فيها شخصية العارف، وتتلاشى غلى حد يفقدها الشعور بذاتها، ولا يمكن نقل ذلك خارج هذه الأنا أو هذه الذات، لأن من خصائص هذه التجربة أنها فوق العقل والتلقي، وبعيدة عن الحس، إنها تشبه تجربة النبوة في اتصالها بالمطلق مع فارق أن النبي مكلف بنقل الوحي للبشر في الحين أن الصوفي تجربته مقتصرة على ذاته، لأن وعاء اللغة يعوزه نقل ذلك لضيقه(محمد اقبال، 1956، صفحة 46) وذلك حينما لا يتسع المعنى للمبنى.

والقلب عند إقبال نوع من الحدس الجواني، أو الاستبصار الذي لا يشوبه الزيف، وإذا كان العقل تحوم حوله لجة الشبه و تشوبه المتناقضات فإن القلب هو أصدق الصادقين(محمد اقبال، 1956، صفحة 15).

ومن الجدير بيانه أن إقبال يؤمن بالمنهج الكشفي المعتمد عند المتصوفة، على نحو يحرره من بعض الشوائب التي ألصقت به، كالسكر والفناء وغيرها من المصطلحات التي يفيد معناها الانقطاع عن العالم المشهود، بل ويرى أنها تنافي قوانين الحياة وجوهر الإسلام، ومقصد النبوة التي جاءت لإيجاد وصناعة أمة صاحية متفاعلة مع نواميس الكون وقوانين الحياة، ولذلك لا يرى بأسا من مخالفة مشاهير الصوفية، وفي مقدمتهم ابن عربي (638هـ) على ما له من فضل—في نظر إقبال – فهو يحتج لعقائده كوحدة الوجود، والشهود إلخ... بتأويل النصوص، ويخلص إقبال إلى أنه تأويلا غير صحيح، ويعده مسلما مخلصا و لا يتبع مذهبه(محمد اقبال، 1956، صفحة 13).

وفي تقديرنا أن السر في مخالفة إقبال لمشاهير الصوفية هو أن التصوف بوصفه تجربة باطنة يمكن فهمه في سياقات متنوعة، فابن عربي وحافظ الشيرازي اشتغلا بحالات النفس كالسكر والفناء ونحو ذلك، في حين أن إقبال اشتغل منه على ما ينسجم مع الإصلاح وتغيير وجه الحياة، ولذلك حط إقبال من شأنهما، وغض من طريقتهما، بل ونهى الناس عن مثل هؤلاء وحذر منهما، وبلغ حد أن حكم على أرائيهما بأنها لا تمت إلى الشرع بصلة، يقول بذلك مع إقراره بحب التصوف، وأن الفلسفات الغربية ذكت النزوع إليه، وألهمته التأثر بالقرآن الكريم والنهل من ينبوعه الرقراق قبل أي شيء آخر(محمد اقبال، 1956، صفحة 13)أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الأول دون المساس بنوع الخط أو حجمه أو حدود الصفحة، قم بعملية النسخ واللصق أو الكتابة المباشرة هنا دون تغيير، أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الأول دون المساس بنوع الخط أو حجمه أو حدود الصفحة، قم بعملية النسخ واللصق أو الكتابة المباشرة هنا دون تغيير.

إقبال فيلسوف الواقع ومفكر العصر

يمكن القول إن مدار فلسفة إقبال كان حول الذات نفيا وإثباتا، وذلك هو عماد فلسفته وقوام أدبه وأشعاره، ولا غرابة في ذلك إدا أدركنا النزعة الصوفية الغالبة عليه، هذه النزعة تجعل الباطن هو الأساس، وتتخذه النقطة المحورية التي ينصب الاشتغال عليها، والمفكر أو الفيلسوف أو الصوفي –بصفة عامة– هو ابن عصره، والمقصود بذلك اهتمامه بقضايا أمته وحرصه على التفاعل مع أحداث عصره باعتباره جزء منها، وعلى هذا النحو جاءت فلسفة محمد إقبال، وجاءت كتبه عامة لتعالج قضايا أمته، يقول في إحدى خطاباته "إنكم الآن تجتازون أدق مرحلة، وتمرون بأصعب دور قي حياتكم السياسية، فعليكم أن تحتفظوا بالارتباط الشامل والاتحاد القويم في العزائم والجهود، وفي الوسائل والغايات، إنني لا استطيع أن أخفي عنكم شعوري بأنكم في سبيل تدارك هذه الحال الخطرة لا بد أن تناضلوا في كفاح الحرية، ولا سبيل إلى محاولة أخيرة لكسب سياسي إلا حيث تكون العزائم عزما واحدا، والقلوب المتباعدة قلبا واحدا، وأن تتركز مشاعركم حول مطلب لا تختلفون غليه، إنكم تستطيعون ذلك وبالقوة يوم تتحررون من القيود النفسية، وحين تضعون أعمالكم الفردية والاجتماعية في ميزان ما تنشدونه من أهداف غالية ومثل رفيعة"(محمد برويز عبد الرحيم، 1985م، صفحة 35)

ويتضح من حلال مثل هذه المقولات الحافلة بها مؤلفاته تفطنه إلى بؤس واقع أمته الناجم عن التفرقة والتشتت، مؤمنا أن التغيير الاجتماعي والسياسي لا يحدث إلا بتغيير النفوس وشحن الهمم بالإيمان، وتحرير البواطن من القيود النفسية والعوائق التي تميت العزائم، ولذلك كان للجانب الروحي أو التصوف في فهم إقبال فهما مغايرا للمعتاد، تجاوز به تلك النظرة التي تدعو إلى الزهد في عالم الحس والمشاهدة بدعوى أنها مما يحجب القلب عن رؤية الحق، بل على النقيض من ذلك رؤية الحق تتأتى بالانغماس في عالم الشهادة والتفاعل معه، وفهم سننه والبحث في أسراره الناطقة بصفات الحق، الدالة عليه.

ويمكن أن نستخلص أن إقبال ينشد التصوف كثورة روحية منسجمة مع سنن الأفاق في علاقة تفاعلية، وينكر ذلك المفهوم الشائع للتصوف –العجمي على حد تعبيره– والذي أخذ من رهبانية كل أمة قطع صلتها بالواقع، فانجذبت نحوه كل صنوف النفوس الخوامد لتجد تحت ظلاله راحة من عناء التكاليف كما فعل القرمطية التي كانت تقصد على التحلل من الأحكام الشرعية العملية(محمد اقبال، 1956، صفحة 12) وفي المقابل نجده شديد التركيز على الاهتمام بقضايا أمته، مبينا بين الفينة والأخرى سبل النهوض بالواقع المرير.

خاتمة:

وفي الأخير فإن غاية ما يمكن أن نخلص إليه هو أن إقبال من أهم الشخصيات الإسلامية التي لم تقو نسائم الغرب على زعزعتها واجتثاثها، ولم تقو على تقويض عزائم الإيمان فيها، وقد زاده إكبارا أن يحافظ على أصالته الشرقية في وسط فلسفات الغرب وماديته وإغراءاته، ولااستهوته بهرجة الحضارة الغربية التي تخرج من أكبر جامعاتها، بل على النقيض من ذلك تماما عاش ناقدا لها، محذرا منها، كما كان يعدها حضارة لادينية فاتنة، تتنافى مع رجاحة العقل وسلامة الفطرة التي فطر الله الناس عليها..

كما أن إقبال يمكن عده من الفلاسفة القلائل في تاريخ المعرفة الإسلامية الذين كشفوا الحجب عن الحضارة الغربية الزائفة المظللة للعقل الخادعة للنفوس الضعيفة، وأعطانا صورة صادقة عن حقيقتها من الداخل، وهو الذي اكتوى بنارها، وما أخمد نارها غير إيمانه اليقيني، وتصوفه الراسخ، وروحه الصافية، وعلمه الغزير، وفي المقابل أمدنا بصورة صادقة عن المعرفة النابعة من الوحي الكريم، المعرفة الجامعة بين المنابع المتمايزة في ظاهرها المتكاملة في حقيقتها.

إن إقبال يمتلك نظرة ديناميكية للعالم وللوجود، وللإنسان تهاوت أمامها الفلسفات الغربية الجامدة التي لطالما أمدتنا بصورة مشوهة عن العالم المشهود، وعن الإنسان باعتباره أهم ما في هذا الوجود، جاءت هذه الصورة وقد سلبت عن الوجود القيمة العقدية الغيبية، وقدمت الإنسان في صورة عرية من القيمة الخلقية، وهي نظرة شيئية موغلة في المادية، مجردة من القيم الروحية، ونحن كما نعلم أن إقبال جعل من الإنسان القيمة محور الارتكاز في فلسفته، في صورة تجعل معرفة الذات سبيلا نحو معرفة الله تعالى فاطر الإنسان خالق الأكوان.

يمكننا القول أن الاهتمام بالذات هو طريق معرفة الحق، ولذلك اهتم إقبال بالذات الانسانية في بعدها الروحي، وأسس لبناء هذه الذات قيما روحية كالافتقار للحق، الحب في عالم المطلق، التحلي بالإقدام والشجاعة، إرساء قيم التسامح، وبين تربيتها وفق مراحل أولها الطاعة، وثانيها ضبط النفس، وثالثها النيابة في جنب الله، وهذا تأسيسا لذات مقدامة شجاعة فاعلة، وتبعا لذلك يمكن أن نقف على إيجابية النزعة الصوفية التي تتملك إقبال، وهي نزعة تدعو إلى الحياة والأمل، والسمو بالنفس إلى أعلى مراتب الارتقاء.

المصادر والمراجع:

ابن خلدون (عبد الرحمن). (2012). *المقدمة*. دار يعرب: دار يعرب.

.Ibn Khaldun (Abdul Rahman). (2012). Introduction. Dar Ya'rub: Dar Ya'rub

سعاد الحكيم. (د س). *معجم المصطلحات الصوفية*. بيروت: : دندرة للطباعة والنشر.

.Suad Al-Hakim. (d.s.). Dictionary of Sufi Terms. Beirut: Dandara Printing and Publishing

عبد الوهاب عزام. (1954م). *محمد إقبال سيرته وفلسفته وشعره*. باكستان: مطبوعات باكستان.

Abdul Wahab Azzam. (1954 AD). Muhammad Iqbal: His Biography, Philosophy, and Poetry. Pakistan: Pakistan Publications.

محمد برويز عبد الرحيم. (1985م). *كتاب وثائقي* . دمشق: السفارة الباكستانية.

Hamad Parvez Abdul Rahim. (1985). Documentary book. Damascus: Pakistani Embassy.

أبو الحسن الندوي. (1960م). *روائع إقبال*. دمشق : دار الفكر.

Abu al-Hasan al-Nadwi. (1960 AD). Iqbal's Masterpieces. Damascus: Dar al-Fak.

سمير عبد الحميد إبراهيم. (1413هـ). *إقبال والعرب*. الرياض: مكتبة دار السلام.

Samir Abdel Hamid Ibrahim. (1413 AH). Iqbal and the Arabs. Riyadh: Dar Al-Salam Library.

عبد الرحمان ابن خلدون. (1984). *تاريخ ابن خلدون*. بيروت: دار القلم.

Abd al-Rahman Ibn Khaldun. (1984). The History of Ibn Khaldun. Beirut: Dar al-Qalam.

علي بن علي سالم. (1430). *أراء محمد إقبال الإعتقادية*. الملكة العربية السعودية : كلية أصول الدين.

Ali bin Ali Salem. (1430). Muhammad Iqbal's Doctrinal Views. Kingdom of Saudi Arabia: College of Fundamentals of Religion.

محمد اقبال . (2011م). *تجديد التفكير الديني في الإسلام*. القاهرة: دار الكتاب المصري.

Muhammad Iqbal. (2011). Renewal of Religious Thought in Islam. Cairo: Dar Al-Kitab Al-Masry.

محمد اقبال. (1956). *ديوان الأسرار والرموز*. مصر: دار المعارف.

Hamad Iqbal. (1956). The Diwan of Secrets and Symbols. Egypt: Dar Al-Maaref.

محمد إقبال. (2011). *تجديد التفكير الديني في الإسلام*. القاهرة: دار الكتاب المصري.

Muhammad Iqbal. (2011). Renewing Religious Thought in Islam. Cairo: Dar Al-Kitab Al-Masry.

مير عبد الحميد إبراهيم. (1413هـ). *إقبال والعرب، الرياض*. الرياض: مكتبة دار السلام.

Mir Abdul Hamid Ibrahim. (1413 AH). Iqbal and the Arabs, Riyadh. Riyadh: Dar Al-Salam Library